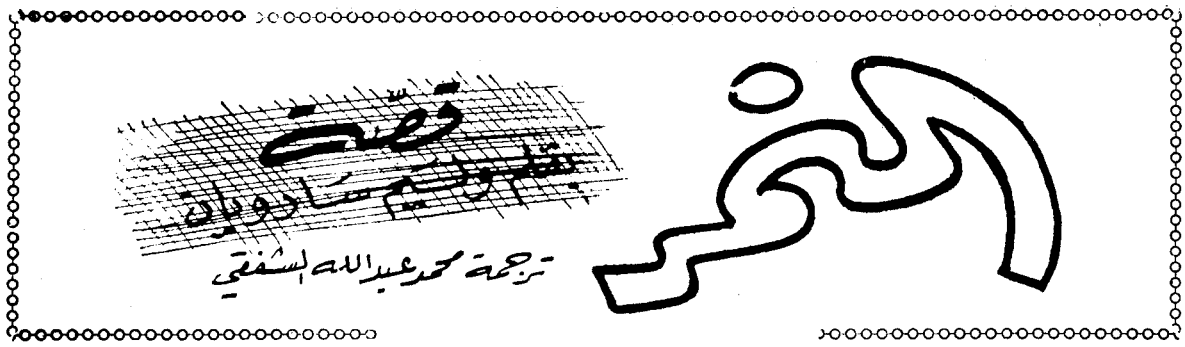

قالت مس جاما ان شعر رأسي في حاجة الى حلاقة ، وقالت أمي ان شعر رأسي في حاجة الى حلاقة ، وقال لي أخي كريكور ان شعر رأسي في حاجة الى حلاقة : العالم كله يظلب مني ان احلق شعر رأسي. كانت رأسي ضخمة بصورة لايحتملها العالم ، سبعة وسبعة أثمان ، وربما ثمانية وسبعة أثمان . وشعر اسود كثيف جدا ، هذا ماقاله العالم .

وكل انسان يسالني : متى ستحلق شعر رأسك ؟

وكان هناك في مدينتنا رجل اعمال كبير يدعى هنتجتون ، وقد تعود ان يشتري مني يوميا ، نسخة من جريدة « الايفننج هيرالد » ، كان هذا الرجل يزن مئتين واربعين رطلا ، ويمتلك عربتين « كاديلاك » ، وستمائة فدان من الارض ـ تقريبا ـ مزروعة كروما ، واكثر من مليون دولار في بنك فالي ، وكان يمتلك ايضا رأسا صغيرا ، خال من الشعر تماما ، رأسا ملتصقا ببدنه مباشرة ، وبذا يستطيع الجميع مشاهدته .

وتعود ان يجعل عمال السكك الحديدية يتقاطرون افواجا من خارج المدينة ويعبرون في سيرهم ستة « بلوكات » ، لا لشيء الا ليتفرجوا على رأسي . وتعود ان يصيح في الشارع قائلا : لماذا لاتذهب الى كاليفورنيا ؟ هناك تجد المناخ الجميل ، والصحة . كما تعود ان يزأر : يا الهي ، ها هي رأس بها شعر !

وكانت مس جاما تشعر بغضب شديد ازاء ضخامة رأسي ، وذات يوم قالت : لن اذكر أسماء ، ولكن اذا لم يقم احد فتيان هذا الفصل بزيارة الحلاق في يوم من هذه الايام ليحلق له شعر رأسه فسنرسله الى الاصلاحية .

لم تذكر أسماء ، واكتفت بان تطلعت نحوي .

وتساءل أخي كريكور : ماهي الفكرة الخطيرة التي تكمن وراء رفضك؟

وقلت : تذكر شمشون ، تذكر غضب شمشون عندما أزالوا شعر رأسه .

وقال اخي كريكور : هذه مسالة اخرى ، أنت لست شمشونا .

وقلت : أوه ، لست شمشونا ؟ من ادراك باني لست شمشونا ؟ ما الذي يجعلك تعتقد انني لست شمشونا ؟

وسرني ان العالم مفتاظ مني ، ولكن حدث ذات يوم ان حاول عصفور بناء عشه في شعر رأسي ، ولذا اسرعت الى المدينة وبممت وجهي شطر حلاق ، كنت نائما فوق العشب تحت شجرة جوز في فناء منزلنا واذا بعصفور يهبط من فوق الشجرة ويشرع في تحسس طريقه داخل شعر رأسي . كان يوما دافئا من ايام الشتاء ، والعالم يغط في النوم . كان كل شيء في العالم ساكنا جدا . لم تكن هناك انسان يندفع حولك بسيارته ، ولم تكن تسمع الا صمت الواقع ، صمتا دافئا منعشا، صمتا فرحا حزينا . العالم ، آه يا الهي ، كان جميلا ان يكون المرء حيا في مكان ما ، وكان رائعا ان يكون للمرء بيت صغير في العالم : شرفة كبيرة في الواجهة لاوقات الظهيرة الطويلة ، والامسيات الطويلة في الصيف ، حجرات عامرة بالموائد والكراسي والاسرة . بيانو ، موقد ، صور معلقة على الحائط ومنزوعة من صحيفة « ساترداي ايفننج بوست » كان شيئا غريبا ومعجزا ، ان يكون المرء في مكان ما من هذا العالم . ان يكون حيا ، يتحرك في الزمان والمكان ، في الصباح والظهيرة ، والمساء ، ان يتنفس ويتقيأ ويتكلم وينام وينمو ، ان يرى وان يسمع وان يلمس . ان يضرب في انحاء العالم تحت اشعة الشمس . ان يكون في المكان .في العالم .

سرني ان العالم موجود ، لكي يصبح في مقدوري ان اكون موجودا بدوري ، كنت وحدي ، ولهذا شعرت بالحزن من اجل كل شيء ، غير انني كنت مسرورا ايضا ، لا فارق هناك على العموم . كنت مسرورا جدا من كل شيء الى حد انني كنت حزينا ، كنت مسرورا جدا وحزينا جدا من كل شيء ، ولذا اجتاحتني الرغبة في ان احلم بهذا كله : بالاماكن التي لم ارها في حياتي . اجتاحتني الرغبة في ان احلم بمواصم العالم السحرية : نيويورك ، لندن ، باريس ، برلين ، فيينا ، القسطنطينية ، روما ، القاهرة ، والشوارع ، والبيوت ، والناس الاحياء ، والابواب والشبابيك في كل مكان . واللحظات التي تومض من بين الاعوام الخوالي كلها ، والمدن التي دفنت في مقابر الزمن ، والبقاع المتعفنة الفانية ، ماكان موجودا مات موتة ابدية وعاش في الوقت نفسه الى الابد ، لان كل ماهو حي على الارض يحيا الى الابد . آه ، يايسوع المسيح ، في عام ١٩١٩ ، وفي يوم من ايام هذا العام رأيت حلما : رأيت فيما يرى النائم ان الصيرورة والتحلل والموت اشياء لم يعد لها وجود . ورأيت فيما يرى النائم ان الشمس في السماء الى الابد ، وان العالم دافيء ، الى الابد .

وفجاة هبط العصفور من فوق الشجرة وحط على رأسي وحاول ان يبني عشا في شعري ، وصحوت من نومي .

وفتحت عيني ، غير انني لم احرك ساكنا .

لم اعرف ان هناك طائرا داخل شعر رأسي الا عندما بدأ العصفور يغني ، ولم يسبق لي ، في حياتي كلها ، ان سمعت صيحة طائر بمثل هذا الوضوح ، وما سمعته كان مدهشا وجديدا ، وفي نفس الوقت طبيعيا جدا وقديما . غنى الطائر ببساطة ، ولكن خيل الي انه يغني قائلا : فلتبك فلتبك ، فلتبك ، اوه ، فلتبك ، ليس امامك ماتفعله سوى ان تبكي . غير ان الطائر افصح عن هذه الرسالة الحزينة بروح مرحة للغاية . قبل ان يحط الطائر على رأسي لم تكن هناك في العالم نأمة وفجاة ها انذا اسمع موسيقى العصفور وبلاغته ، وبدا لي لحظة ، وانا بين النوم واليقظة ، ان الامر كله لايعدو ان يكون شيئا طبيعيا : لا غرابة في ان يكون الطائر داخل شعر رأسي ، ولا غرابة في كونه يتحدث الي ، ولا غرابة في التناقض الملحوظ بين معنى الرسالة وطريقته في ادائها ، رسالة حزينة ، وتأدية مرحة .

غير انني اكتشفت فجأة ان هذا التصرف غير لائق ، لم يكن من اللائق ان يجيء طائر صغير ليصفق بجناحيه ثم يحط على شعر اي انسان.

ولهذا قفزت من مكاني واسرعت الى المدينة ، وانزعج العصفور بالطبع ، فطار بأقصى مايستطيع الطيران في نفس واحد .

كان العالم على صواب ، وكانت مس جاما على صواب . وكان اخي كريكور على صواب ، لم يكن امامك الا ان تحلق رأسك حتى لاتحاول العصافير بناء اعشاشها في شعرك .

وكان هناك ، في شارع ماريبوزا ، حلاق ارمني يدعى آرام ، وهو مزارع بطبيعة الحال ، وربما كان حدادا ، وربما كان فيلسوفا . لااعرف كل ما اعرفه ان له محلا صغيرا في شارع ماريبوزا وانه يقضي معظم وقته في مطالعة صحيفة ((أسباريز)) وغيرها من الصحف الارمنية ،وفي لف السجائر ، وتدخينها ، ومراقبة الناس وهم يمرون امام محله . لم اره ابدا يحلق شعر رأس انسان ، او ذقنه ، ولكن يخيل الي ان زبونا او زبونين دخلا محله خطأ ، بمنتهى البراءة .

ذهبت الى محل آرام في شارع ماريبوزا وايقظته . كان جالسا الى مائدة صغيرة عليها كتاب ارمني مفتوح ، وكان يغط في النوم .

وبالارمنية قلت له : هل تسمح بقص شعري ؟ معي خمسة وعشرون سنتا .

وقال : آه يسعدني ان اراك ، ما اسمك ؟ اجلس . سأعد لك القهوة اولا ، آه ، ما اجمل شعر رأسك هذا .

وقلت : الجميع يريدون ان احلقه .

وقال : هذه هي طريقة العالم . الناس يملون عليك دائما ماتفعله . ماعيب كمية من الشعر ؟ لماذا يملون على الانسان تصرفاته ؟ يقولون لك : تكسب . اشتر مزرعة ، اعمل كذا . اعمل كيت ، انهم يحولون بين المرء وبين ان يحيا حياة هادئة .

وسألته : هل تستطيع ان تقصه ؟ هل تستطيع ان تزيله كله حتى يمضي وقت طويل دون ان يتحدثوا عنه مرة ثانية ؟

وقال الحلاق : القهوة ، فلترتشف قليلا من القهوة اولا .

وكان هناك ، في مؤخرة المحل مستودع الجاز ، وبالوعة ، وانبوبة تصريف ، ورف صفت فوقه فناجين صغيرة وأطباقها ، وملاعق ، وفتاحة علب ، وخلافه .

وناولني فنجانا من القهوة ، وسألت نفسي في دهشة : لماذا لم ازره من قبل ، وهو على مايبدو اطرف رجل في المدينة كلها ؟ لقد تأكدت انه رجل فريد من طريقة استيقاظه عندما دخلت المحل ، ومن طريقة كلامه ، وسيره ، وحركاته ، وعرفت انه رجل فريد جدا في هذا العالم ، انه حلاق في شارع ماريبوزا . كان في حوالي الخمسين من عمره ، اما انا ففي الحادية عشرة . لم يكن اطول مني ، ولا اثقل وزنا ، غير ان وجهه وجه رجل اكتشف الحقيقة ، رجل يعرف من هو الحكيم ، ومع ذلك يحب الناس ويعطف عليهم .

ولكان نظرته ، عندما فتح عينيه ، لكأنها تتساءل : العالم ؟ انني اعرف كل شيء عن العالم ، اعرف الشر والشقاء ، الكراهية والخوف ، القذارة والعفونة ، ومع هذا احب العالم ، بكل مافيه .

ورفعت القدح الصغير الى شفتي وارتشفت السائل الاسود الساخن كان مذاقه احلى من اي شيء تذوقته في حياتي .

وقال بالارمنية : اجلس ، اجلس ، اجلس ، ليس وراءنا مكان نذهب اليه ، وليس وراءنا عمل ننجزه ، وشعرك لن ينمو عما هو في غضون ساعة .

وجلست وضحكت بالارمنية ، وشرع هو يحدثني عن العالم حدثني عن خاله الذي ولد في بلدة موسن .

وشربنا القهوة وبعدها جلست على الكرسي وبدا يقص شعر رأسي. لقد كانت أسوأ حلاقة في حياتي ، أسوأ من حلاقة كلية الحلاقين الواقعة وراء الخط الحديدي ، وهي التي كنت اذهب اليها لاحلق بالمجان . غير انه حكى لي قصة خاله المسكين ميساك ، ولا يستطيع اي تلميذ في كلية الحلاقين الواقعة وراء الخط الحديدي ان يحكي قصة كهذه . ولو اجتمعوا كلهم لما استطاعوا ان يحكوا مثلها . ولن يدهشني ان يعجز كل التلامذة الحلاقين في انحاء العالم عن حكاية قصة تداني تلك القصة الحزينة ، قصة خاله المسكين ميساك ونمر السيرك . خرجت من محله بحلاقة رديئة جدا ، غير انني لم أعبأ بهذا . انه ليس حلاقا على كل حال . كل مافي الامر انه يتظاهر بانه حلاق حتى لاتضايقه زوجته كثيرا. كل ما في الامر انه كان يحلق للناس ليرضي العالم . اما الذي يريده هو حقا فهو ان يقرأ ويتحدث مع الناس الظرفاء . وكان له خمسة ابناء ، ثلاثة فتيان وفتاتان ، غير انهم جميعا مثل زوجته ، ولم يكن في مقدوره ان يتحدث معهم ، كل مايريدونه منه هو ان يعرفوا : كم يكسب ؟

وحدثني قائلا : ولد خالي المسكين ميساك في مدينة موسن ، كان ذلك منذ زمن بعيد ، وكان في صباه متوحشا جدا ، غير انه لم يكن لصا . كان متوحشا مع الذين يظنون انهم اقوياء ، وكان في مقدوره ان يصارع اقوى شابين في المدينة كلها ، بل ويصارع ـ اذا اقتضى الامر ـ اباءهم وامهاتهم في نفس الوقت . وقال الحلاق : وأجدادهم وجداتهم ايضا .

ونتيجة لهذا قال الجميع لخالي المسكين ميساك : ميساك ، انك قوي ، فلماذا لاتشتغل بالمصارعة وتتكسب منها ؟ وهكذا صار ميساك مصارعا . وكسر عظام ثمانية عشر رجلا قويا ولما يبلغ العشرين من عمره بعد . اما نقوده بأكملها فكان ينفقها في الاكل والشرب ويعطي الباقي لابنائه ، لم يكن يريد نقودا .

وتنهد الحلاق ، آه ، كان هذا منذ زمن بعيد جدا . اما الان فالجميع يريدون نقودا . وقالوا لخالي : ستندم في يوم من الايام ، وكانوا على صواب بالطبع . لقد أشاروا عليه بان يحرص على ماله لان قواه ستخونه في يوم من الايام وساعتها سيعجز عن المصارعة ولن يكون لديه مال . وحان ذلك اليوم بالفعل . بلغ خالي المسكين ميساك الاربعين من عمره ولم يعد قويا ، ولم يكن لديه مال . وكان ان ذهب الى برلين . آه ،هناك بقعة من بقاع العالم، برلين . وهناك ايضا ، كاد خالي المسكين ميساك يموت من الجوع .

واثناء هذا كله كان الحلاق يقص شعري ، ذات الشمال وذات اليمين وكان في مقدوري ان المح الشعر الاسود ملقى على الارض واحس برأسي تزداد برودته من اثر تعريضه للجو . وتزداد ضالته ايضا . وقال الحلاق: آه ، برلين ، تلك العاصمة القاسية ، شوارع وشوارع ، بيوت وبيوت ، اناس واناس ، ومع هذا لم يكن هناك باب امام خالي المسكين ميساك ، ولا حجرة ، ولا مائدة ، ولا صديق .

وقلت : آه ، يا الهي هذه العزلة التي يعانيها الانسان في هذا العالم . هذه العزلة المفجعة التي يعانيها كل من هو حي .

وقال الحلاق : وتكررت القصة في باريس ، وتكررت في لندن ، وتكررت في نيويورك ، وتكررت في امريكا الجنوبية ، وتكررت في كل مكان ، شوارع وشوارع ، بيوت وبيوت ، ابواب وابواب ، ولكن لا مكان في هذا العالم كله لخالي المسكين ميساك .

وصليت من اجل خاله المسكين وقلت : آه ، يا الهي ، احمه يا ابانا الذي في السموات ، احمه .

وقال الحلاق : وفي الصين التقى خالي ميساك برجل عربي يعمل مهرجا في سيرك فرنسي ، ودار بين المهرج العربي وخالي حديث باللغة التركية ، وقال المهرج : ياأخ ، هل تحب الانسان والحيوان ؟ وقال خالي : يا أخ ، انني احب كل ماهو موجود في سموات الرب المقدسة ، احب الناس والحيوانات والسمك والطير والصخر والنار والماء وكل ماتراه العين وما لاتراه . وقال المهرج العربي : يا أخ ، هل تحب الحيوان حتى ولو كان نمرا ، نمر غابة كاسر ؟ وخالي قد رد عليه بقوله : ياأخ، ان حبي لنمر الغابة الكاسر حب لايعرف الحدود .

آه ، كان خالي ميساك رجلا شقيا .

وقلت : يا الهي .

شد ماكان فرح المهرج العربي عندما سمع بحب خالي لحيوانات الغابة المتوحشة ، فلقد كان بدوره رجلا شجاعا جدا . وقال لخالي : ياأخ ، هل يبلغ حبك للنمر انك تضع راسك داخل فمه وهو يتثاءب ؟

وصليت من اجل خاله : احمه يا الهنا .

وقال آرام الحلاق : رد عليه خالي بقوله : استطيع ان افعل ذلك.

وساله المهرج العربي : ياأخ هل تنضم الى السيرك ؟ بالامس اطبق النمر فمه ـ في غير اكتراث ـ على راس سيمون بريجورد المسكين ، ولم يكن هناك في السيرك شخص يحب مخلوقات الرب الخالد حب بيريجورد لها . لقد سئم خالي ميساك هذا العالم ، وكان ان قال : ياأخ سانضم الى السيرك وساضع راسي داخل الفم المتثائب لنمر الرب المقدس ، اثنتي عشرة مرة يوميا ، وقال المهرج العربي : لاداعي لهذا . تكفي مرتان يوميا . وهكذا انضم خالي المسكين ميساك الى السيرك الفرنسي في الصين ، وشرع يضع راسه داخل فم النمر اثناء تثاؤبه .

وقال الحلاق ، وانتقل السيرك من الصين الى الهند ، ومن الهند الى افغانستان ، ومن افغانستان الى ايران ، وهناك ، في ايران ، حدث ماحدث . كانت اواصر الصداقة المتينة قد انعقدت بين خالي المسكين ميساك والنمر . غير ان النمر استحال الى حيوان متوحش مرة اخرى في طهران ، تلك المدينة العجوز المتداعية ، كان يوما شديد الحرارة ، وكل شخص على استعداد للشجار ، وكان النمر غاضبا جدا ، وظل يجري هنا وهناك طيلة النهار في طهران ، تلك المدينة الايرانية القبيحة المتعفنة وضع خالي المسكين ميساك راسه داخل فم النمر المتثائب ، وهم باخراج راسه من فم النمر ، غير ان النمر ، وقد سئم بشاعة كل ماهو حي على وجه الارض ، اطبق فكيه على راس خالي .

ونهضت من فوق الكرسي ، ولمحت في المرآة شخصا غريبا ، لمحت نفسي كنت مفزوعا ، اما شعري فقد ذهب باكمله . ودفعت لارام الحلاق خمسة وعشرين سنتا وعدت الى منزلي ، وضحك الكل على منظري ، وقال اخي كريكور انه لم ير في حياته ابدا حلاقة طائشة كهذه .

ومع هذا ، لم اتضايق .

اما الذي شغل ذهني طيلة اسابيع متعددة فهو ميساك المسكين ، خال الحلاق ، ذلك الرجل الذي قضم نمر السيرك راسه ، واخذت اتطلع الى اليوم الذي يحتاج فيه شعري الى مقص الحلاق مرة اخرى ، حتى اذهب الى محل ارام لاستمع اليه وهو يحكي قصة الانسان على هذه الارض ، الانسان الضائع الوحيد الذي يعيش في الخطر دائما ، ولاستمع اليه وهو يحكي القصة الحزينة ، قصة خاله المسكين ميساك ـ تلك القصة الحزينة التي يعيشها كل انسان حي .

ترجمة : محمد عبدالله الشفقي

هذا الشهر

كتاب هام وطريف

يكشف الستار عن كثير من الحقائق

والاوضاع الخفيـة في بلاد

اليمن السعيدة

بقلم الكاتب الالماني

هانز هالفيتز

ترجمة صلاح كامل

ـ مغامرات كاتب الماني بين السجن والمطاردة والبحث عن آثار ملكة سبأ

ـ اطرف كتاب يتحدث عن الحالة السياسية والاجتماعية في بلاد ((اليمن السعيدة)) التي تظل مغلقة دون الحضارة .. ودون الجميع

منشورات دار الاداب